

المضامين الفكرية في شعر حسان بن ثابت وأثرها في تطوير اللغة الشعرية

أ.م.د. إسماعيل إبراهيم برزنجي
جامعة السليمانية – كلية اللغات

مقدمة

تبدو العلاقة بين الفكر والشعر في الظاهر غير حميمية أو عكسية انطلاقاً من مبدأ ارتباط كل منهما بمصدر يعدّ غريماً تقليدياً للآخر، والمصدران هما العقل والقلب، إذ يكون الفكر نتاجاً لنشاط العقل الإنساني وعملاً رئيساً له، بينما يرتبط الشعر بالقلب والعواطف الناتجة عنه، خصوصاً عندما أخذنا بنظر الاعتبار الأرضية التي يتكوّن فيها الشعر التي هي الخيال، والخيال بطبيعته عالم خاص يختلف عن العالم الواقعي الذي هو ميدان العقل، بل أكثر من ذلك يحطّم الخيال الأقيسة العقلية والقواعد المنطقية، ويتخذ من مقاييسه الخاصة به في توليد الشعر.

لكن الأمر يقلّ حدة عندما ندخل عنصراً آخر في العلاقة بين الفكر والشعر، حيث يقرب بينهما ويقوي أحدهما بالآخر ألا وهو اللغة، فاللغة تشكل ميداناً مشتركاً لنشاط كل منهما وتقيم بينهما علاقة تبادلية، إذ يستفيد الفكر من جماليات اللغة الشعرية وصورها الفنية آليّة للتجلي، ويروض بها خطابها العقلاني، وفي مقابل ذلك يأخذ الشعر من الفكر الرّصين موضوعات عديدة للمعالجة ويوسّع بها آفاقه الدلالية، كما أنه يأخذ ألفاظاً وتعبيراً لغوية تثرى المعجم الشعري وتساعد على الدقّة في التعبير بتوفير أنسب الألفاظ والكلمات للدلالات المراد الإفصاح عنها.

وقد حدث هذا كثيراً عند الشعراء في مراحل تاريخية مختلفة عند ظهور الأفكار الجديدة والفلسفات المختلفة، وجاء اختيار شعر حسان بن ثابت نموذجاً لهذه الظاهرة كونه يمثّل مرحلة مفصلية في تاريخ الأدب العربي، إذ واكب حسان ظهور الإسلام وانتشاره في الجزيرة العربية، وأخذ فكرياً وعقيدةً وديناً، ولاشك في أن لهذا الحدث الكبير في حياته ولانقلابه من الجاهلية إلى الإسلام أثراً بالغاً في شعره كتأثيره في فكره وعقيدته، فأخذ يجسّد مبادئ الإسلام ومفاهيمه في شعره، وينهل من ينابيع الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ما أدى إلى إثراء تجربته الشعرية شكلاً ومضموناً.

من هذا المنطلق يحاول البحث دراسة المضامين الفكرية الجديدة التي شكّلت البنية الدلالية العميقة لشعر حسان، وأمدّها بدلالات وألفاظ لغوية وسعت آفاق الخيال والمعجم الشعري لديه من جانب، ومن جانب آخر يدرس

ما قدمته الشعرُ ببنيتها الجمالية للفكر الإسلامي من فتح مجال فني لنشر الأفكار الجديدة في حلة بلاغية وخطاب إبداعي، ما أدى إلى سهولة قبولها لدى المتلقين نظراً لطبيعة الشعر السلسة. بناءً على هذا، توّعت مادة البحث على محورين أساسيين: (أولاً: المضامين الفكرية وتوسيع البنية العميقة)، حيث يبحث فيه عن تأثير الفكر الجديد في إغناء الدلالة الشعرية التي كانت محصورة في مضوعات تخص حياة الجاهليين، لكنها توسعت بفضل مجيء الإسلام وفتحه آفاقاً فكرية جديدة (ثانياً: المضامين الفكرية وتطوير اللغة الشعرية). وفي هذا المحور ينصب الحديث على انعكاس البنية العميقة وسعتها على المعجم الشعري ووصف الكلمات في متواليات لغوية تشكل الأسلوب الجديد، ويلمح إلى تقانة التناص التي تشكل ملمحاً أسلوبياً بارزاً في شعر حسان، وفي المحورين كليهما يسلط الضوء على التأثير المتبادل بين المضامين الفكرية الإسلامية والخطاب الشعري.

أولاً: المضامين الفكرية وتوسيع البنية العميقة

تكمن أهمية المضامين الفكرية في تمتين القاعدة الدلالية التي يتطلق منها الشاعر في تشكيل خطابه الشعري، وإمدادها بمضوعات شعرية ذات جدارة وعمق، وتصنّب هذه الموضوعات مباشرة في مركز توليد الخطاب الشعري، وتغني التجربة التي تسبق ولادة القصيدة دائماً، وتعمل على تكثيف الدلالة لتخرج إلى البنية السطحية على شكل متواليات لغوية معبرة عن تلك الكثافة بأقلّ التعابير والجمل الشعرية.

ولا شك في أنّ هذه البنية الدلالية هي التي ترسم الملامح الشكلية للخطاب أيّاً كان نوعه، ويعين منتج الخطاب على اختيار ألفاظه وتعابيرها في البنية السطحية من معجمه اللغوي لتكون أكثر دقة وتعبيراً على المعنى، وقد يضطر إلى ألفاظ ومصطلحات جديدة لتناسب البنية العميقة وتفي بالمعنى بأحسن وجه، لأنّ المضمون يأخذ شكل القالب، ويتحدّد بحدوده في وضوحه وجودته، أو غموضه وردائه^(١).

وهذا الكلام يكون أكثر دقة وتعقيداً مع الخطاب الشعري، لأنه يستخدم لغة أرقى من الخطابات الأخرى ويستعملها استعمالاً خاصاً، قد يبدو الشاعر أنّه يستخدم الألفاظ والتراكيب التي يستخدمها الرجل العادي، فلغته في ظاهر الأمر على التسق نفسه الذي يصطنعه إنسان عادي، لكن في الحقيقة تأخذ التراكيب صورة أو معنى أروع وأنضّر، ((كأنّ هناك جهداً شخصياً يجعل معنى التراكيب في العبارة الشعرية يختلف عن معنى التراكيب المناظر له في العبارة غير الشعرية))^(٢)، وهذا نابغ عن عمق البنية الدلالية وسعتها، وهناك تفاوت بين الشعراء في سعة هذه البنية بحسب المضامين والمعاني المختلفة التي تحتويها، والعناصر التي تخترنها بمرور الزمن.

عملية توسيع البنية العميقة عند الشاعر مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالبناء الفكري له، لأنّ هذه البنية تمثل القاعدة الذهنية للأفكار والمعاني والتجربة وكلّ ما يتعلق بإدراكه للأشياء وتفكيره في ماهيتها، ولا تتسع مرّة واحدة على أكمل وجه، بل هي في توسع مستمر جنباً إلى جنب مع تقدّم عملية البناء الفكري لدى الشاعر، كما ((أنّ الفكر لا يدخل إلى الإنسان جسماً كاملاً، إنّما يبنيه بناءً لبنة بعد أخرى)) ويجري هذا بمنهج^(٣)، يجري

١. د.فتحي حسن ملكاوي، البناء الفكري مفهومه ومستوياته وخصائمه، ص ٢٠٤.

٢. الدكتور مصطفى ناصف، نظرية المعنى في النقد العربي، ص ١٢.

٣. د.فتحي حسن ملكاوي، المرجع السابق، ص ٧٤-٧٥.

التوسُّع أيضاً في البنية الدلالية العميقة لدى الشاعر خطوة بعد أخرى، كلما تطوَّر بناؤه الفكري من مستوى إلى آخر وترقى توسَّعت البنية العميقة، وتثرى بالأفكار والصُّور والمعاني ما يتعكس على لغته الشعريَّة فيما بعد، ويؤثر في تعابيره ونتاجه الشعري.

بناءً على هذا، يمكننا الحديث عن درجة الغنى والثراء ومستوى العمق والتنوع الفكري في شعر حسان بن ثابت بعدما أخذ الإسلام ديناً وعقيدةً ومنهجاً في الحياة، أي غيرَ طريقة بنائه الفكري من الجاهليَّة إلى الإسلام، وانتقل إلى حالة جديدة، فصار إنساناً جديداً لأنَّ شخصيَّة الفرد تتشكل ((من بنائه الفكري وبنائه النفسي، وفي الوقت الذي يختصُّ البناء الفكري بالقناعات العقلية والمعتقدات، فإنَّ البناء النفسي يختصُّ بالجانب الانفعالي والوجداني من الإنسان))^(٤)، وكلا الجانبين يشتركان بفعاليَّة كبيرة في إخراج التجربة الشعريَّة من صورتها الذهنيَّة إلى الصُّورة الماديَّة المتمثلة في اللُغة، ومن أهمِّ سمات اللُغة الشعريَّة أنَّها مشحونة بالعواطف والانفعالات، وهي غير اللُغة التواصلية العادية التي تعتمد على المنطق ومقاييس العقل، بل إنَّها لغةٌ فنيَّةٌ جماليَّةٌ يمرُّ صياغتها عبر دهايز الخيال، ومعروف أنَّ عالم الخيال خاصُّ له معايير وطبيعته التي تختلف عن طبيعة العالم الواقعي.

من هنا يمكننا أن نُؤسِّر بعض المضامين الفكرية التي دخلت موضوعات الشعر عند حسان بعد إسلامه، وأغنت تجربته الشعريَّة، ووسَّعت من البنية العميقة التي تمثل القاعدة الدلالية لإنتاج خطابه الشعري، ومن أهمِّها:

١ - المضامين المتعلِّقة بالجانب العقيدي:

تتعلَّق هذه المضامين بقضيَّة الإيمان وما يتعلَّق به وبرأته من الشُّرك وعبادة الأصنام، وقد فتح التحوُّل العقيدي لديه آفاقاً واسعة في الفكر الديني، حيث كان محصوراً على الخرافة والشعوذة والسحر وما ورثه من أجداده من العبادة لعناصر الطبيعة والأشياء الجامدة، لكن بفضل تصديق نبوَّة محمد(ص) والإيمان بوحديَّة الله وصدق الرِّسالة السَّماويَّة ارتقى عقله، ومضى يحتكم إليه في معرفة الدات الإلهية وإنشاء الكون وتدير نظامه، والتأمُّل في ملكوت السَّموات والأرض وإمعان النظر في صانع هذا الكون والحياة الذي سوى كلِّ شيء فيه وقدرة تقديراً^(٥)، وقد انعكست رُحابة هذا الجانب بمفاهيمه الجديدة وموضوعاته الكثيرة على توسيع البنية الدلالية لدى الشاعر، فصار يُعبِّر عنها في قصائده، ويستخدم كلَّ طاقاته الذهنيَّة في التزوُّد بجميع المعارف وإدراك الحقائق ممَّا أثرى المعاني الشعريَّة والدلالات الكثيفة في التعبير.

والأمثلة على هذا التوسُّع كثيرة في شعره، مثلاً قوله (من الطويل):

وأنت إله الخلق ربِّي وخالقي بذلك ما عمَّرت في النَّاس أشهد
تعاليت ربَّ النَّاس عن قول من دعا سواك إلهاً أنت أعلى وأمجَّد
لك الخلق والنَّعماء والأمر كلُّه فإياك نستهدي وإياك نعبُد^(٦)

في هذه الأبيات يتضح التحوُّل الفكري والعقدي لحسان من الجاهليَّة إلى الإسلام، إذ خرج من النطاق الضيق لعبادة الأصنام إلى عالم أوسع ومعرفة الإله الخالق للكون والبشر والخلق جميعاً، وهذا التحوُّل أثر في تطوير

٤. د. فتحي حسن ملكاوي، المرجع السابق، ص ٧٥.

٥. د. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي، ص ١٥.

٦. حسان بن ثابت الأنصاري، ديوان حسان بن ثابت، شرح: د. يوسف عيد، ص ٨٣.

البناء الفكري لديه، حيث قلب موازين التفكير عند حسان، فكان في الجاهلية زهين عبادة الطبيعة بسبب عدم إدراكه علاقة الإنسان بها، وعدم معرفته بأن خالق الكون سخر كل ما فيه للإنسان وهو أكرم خلق الله، لكن بفضل هذا التحول في عقيدته أدرك أنه كان مخطئاً في إيمانه، وأن الله يتعالى عمّن سواه ولا يحتاج إلى شريك، فله الخلق والأمر كله، فهو يستحق أن يطلب منه الهدى وأن يعبد.

هذا الإيمان فتح عليه أبواباً أخرى ليراجع مفاهيمه وبنائه الفكري برمته، فكثرت الحديث على أثر ذلك في شعره عن مفاهيم مثل الحق والضلال والخير والشر والسعادة والبعث والحلال والحرام، مثلاً قوله ل(أبي بن خلف الجمحي) الذي أنكر البعث أمام الرسول(ص)، وجاء بعظم رميم بال إليه قائلاً أتزعّم أن ربك يحيي الموتى (من الوافر):

لقد ورث الضلالة عن أبيه أبي يوم فارقة الرسول
أجنت محمداً عظماً رميماً لتكذبه وأنت به جهول
وقد نالت بنو التجار بكم أمية إذ يغوث يا عقيل^(٧)
ويقول أيضاً (من الطويل):

ترحل عن قوم فضلت عقولهم وحل على قوم بتور مجد
هداهم به بعد الضلالة ربهم وأرشدهم من يتبع الحق يرشد
لقد نزلت منه على أهل يثرب ركاب هدى حلت عليهم بأسعد^(٨)

تبيّن هذه الأبيات كيف تغيرت نظرته إلى الحق والضلال والرشد والحق، فيربط رشد الإنسان واكتمال عقله باتباع الحق، والحق لا يعرف ولا يدرك من دون تفكير سليم مصدره عقل سليم.

وقاده إيمانه بالله وتصديقه الرسول(ص) إلى تصديق ما ورد في القرآن الكريم من أخبار الأمم الغابرة والأنبياء المرسلين إليهم، وقد وسعت القصص الواردة في القرآن البنوية الدلالية لدى حسان، وزودته بالمعاني والدلالات والموضوعات الشعرية، وانعكست هذه الحالة إيجاباً على شعره وصارت مضامين شعرية ناتجة عن التحول الفكري لديه، ومنها قوله (من الطويل):

شهدت بإذن الله أن محمداً رسول الذي فوق السماوات من عل
وأن أبا يحيى ويحيى كليهما له عمل في دينه متقبل
وأن التي بالجرع من بطن نخلة ومن دائها فل من الخير معزل
وأن الذي عادى اليهود ابن مريم رسول أتى من عند ذي العرش مرسل^(٩)

يدل ما ورد في هذه الأبيات على إيمان حسان بالأنبياء والمرسلين الذين ورد ذكرهم في القرآن، وزويت قصصهم بالتفصيل وبطرائق غير معهودة عند العرب والأمم ذوات الرسائل السماوية، وبما أن القرآن صار مصدراً رئيساً لبنائه الفكري، فقد أخذ هذه القصص ووسّع بها قاعدة البنوية الدلالية لديه وأدخل مضامين جديدة إليها.

^٧ حسان بن ثابت الأنصاري، المصدر السابق، ص ٣٢٢.

^٨ المصدر نفسه، ص ٩١.

^٩ حسان بن ثابت الأنصاري، شرح الديوان، تحقيق: عبدالله سنده، ص ٢٠١.

٢ - المضامين المتعلقة بالفكر الاجتماعي:

تتجسّد هذه المضامين في طريقة تعامل حسان مع القيم الاجتماعية التي جاء بها الإسلام للبشرية ليكون بها مجتمعات أكثر تماسكاً وانسجاماً، تتمتع بالتسامح والعيش المشترك والتحلّي بالفضائل والأخلاق الكريمة، والقيم مجموعة من المبادئ والأسس التي يعتنقها الإنسان وتوجّه سلوكه، وتكون تلك القيم منظومة متكاملة لضبط السلوك الإنساني في كافة مجالات الحياة^(١).

ولاشكّ في أنّ القيم الإسلامية التي دخلت حياة حسان، وحلّت محلّ القيم الجاهلية، أحدثت ثورة كبيرة في شخصيته على الصعيدين الفكري والعملي، فصار التعبير الشعريّ لديه جزءاً من سلوكه، وانعكست الرؤية الإسلامية في مجمل حياته وهي رؤية منظومية تنظر إلى كلّ شيء باعتبارها منظومة كليّة لها جملة من المنظومات الكلية التأسيسية تساند بعضها بعضاً^(٢)، وقد تعامل حسان معاملة المفكر مع تلك القيم وحاول ترسيخها في المجتمع عبر شعره، لما للشعر من أهميّة في نفوس الناس، وأهمّ هذه القيم الصدق، وهو أساس لمجموعة من المفاهيم الأخرى والقيم الأخلاقية في المجتمع، وقد صار موضوعاً شعرياً عند حسان متناولاً بطروق عديدة، فهو يقول (من البسيط):

يأيها الناس أبدو ذات أتفسّكم لا يستوي الصدق عند الله والكذب^(٣)

ومضى يربط الصدق بتصديق ما أتى به الرسول(ص)، لأنّ تصديق تلك المنظومة من القيم والمفاهيم الغيبية التي جاء بها الرسول(ص) يكون أساساً للتحلّي بالصدق كقيمة اجتماعية، والكفر بها ارتياب وشكّ يراودهما الكذب، من ذلك قوله (من الكامل):

وأقرّ عين محمد وصحابه وأقرّ عين محمد وصحابه
مستشعر للكفر ذون ثيابه مستشعر للكفر ذون ثيابه
علق الشقاء بقلبه فأرانه علق الشقاء بقلبه فأرانه
في الكفر آخر هذه الأحقاب^(٤)

يربط هنا بين الصدق والإيمان وبين الكفر والكذب، كأنه أراد أن يقول إنّ النفوس الركيّة الطاهرة تصدّق نبوة محمد لأنّ الصدق راسخ فيها، أمّا النفوس المرتابة المريضة فتبقى على الكفر والشكّ وتميل إليها، ولا سبيل للصدق إليها مادامت باقية على حالها طوال الدهر.

ويبدو حسان أحياناً كمصلح اجتماعي يركّز على أمراض المجتمع ويحدّدها، ثمّ يدغو إلى تركها والتحلّي بالفضائل بدلاً منها، من ذلك قوله (من الكامل):

إنّ الخيانة والمخالعة واللؤم أصبَحَ ثاويّاً بالأبطح وإنّ الخيانة والمخالعة واللؤم أصبَحَ ثاويّاً بالأبطح
قوم إذا نطق الخنا ناديهم تبع الخنا وأضع أمر المصلح تبع الخنا وأضع أمر المصلح
واشتقّ عند الحجر كلّ مزّج إلا يصح عند المقالة يتبج^(٥)

١. مجموعة مؤلفين، القيم في الظاهرة الاجتماعية، تحرير: أ.د. نادية محمود مصطفى وآخرون، ص ٤٦.

٢. مجموعة مؤلفين، القيم في الظاهرة الاجتماعية، ص ٤٦.

٣. الأنصاري، ديوان حسان بن ثابت، المصدر السابق، ص ٣٠.

٤. الأنصاري، ديوان حسان بن ثابت، المصدر السابق، ص ٢٢-٢٣.

٥. الأنصاري، ديوان حسان بن ثابت، ص ٧٨.

يتناول في هذه الأبيات صفات أخلاقية رذيلة مثل الخيانة والوشاية والفحش من القول وفقدان القصد، وهي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي، وكان بعضها محل فخر عند الشعراء وهي تابعة من العادات والتقاليد ولم يعارضها الشعراء، بل عمل على تكريسها خصوصاً إذا كانت بحق الخصوم. وهذا ما أفسد ونام المجتمع والتضامن بين أبنائه، لكن بفضل الإسلام تغيرت هذه الأمور، ونرى حسناً كيف يركّز على نبذ تلك المفاهيم الخاطئة لتحقيق قيمة التضامن الاجتماعي والاحترام المتبادل بين المكونات المختلفة، ولأشك أن هذه المضامين دخلت شعر حسان بفضل الإسلام.

ومن القيم الاجتماعية النبيلة تحقيق الانسجام والوحدة بين أبناء المجتمع الواحد وإن انتسبوا إلى شرائح متعددة وأجناس مختلفة، لأن السلام والوئام الاجتماعيين مصدر الحياة الكريمة، وهذا ما دعا إليه حسان في شعره في قوله (من البسيط):

وقد زعمتم بأن تحموا دماركم وماء بدر زعمتم غير موزود
وقد وردنا ولم نسمع لقولكم حتى شربنا رواء غير تصريد
مستعصمين بحبل غير منجدم مستحکم من حبال الله ممدود

يجد حسان في هذه الأبيات الإسلام الرابط الأقوى والأهم لبقاء المجتمع متماسكاً ومنسجماً، لأن حبل الله غير مقطوع بل صلة وثيقة يجمع كل الاختلافات، وينبذ التفرقة والرعامات الفارغة.

٣ - المضامين المتعلقة بالفكر السياسي

تأتي هذه المضامين انعكاساً للمفاهيم التي جاء بها الإسلام في مجال الفكر السياسي للبشر عموماً وللعرب على وجه الخصوص، وتوسيع آفاقهم الفكرية بخصوص التوجه نحو الوحدة ونبذ التفرقة، وتأسيس الدولة بحدود أوسع من القبيلة، واتخاذ الأمة قاعدة لبناء تلك الدولة وتحديد الحقوق والواجبات وحقوق الأقليات، وقد تجسّد كل هذا في ميثاق المدينة.

وقد تناول حسان موضوعات سياسية تشير إلى تغيير في الفكر السياسي عنده، وأسهمت في بنائه الفكري وتوسيع البنية العميقة في تجربته الشعرية، من هذه الموضوعات مسألة الانتماء، وهي ظاهرة إنسانية قديمة تحدّد نوعاً من الهوية للفرد تميّزه من غيره في جماعات مختلفة^(١٥)، فقد كانت في الجاهلية للقبيلة أو الجد الأعلى، لأن روابط القرابة الدموية هي عماد الأنساب، وهي أنساب تبلغ عندهم درجة الحقائق الثابتة التي يقرها المجتمع، ويقيم علاقاته الإنسانية على أساسها، فهو مجتمع قبائل أبوية لا يتأتى وجودها إلا بوجود التسبب الذي تقوم على أساسه الروابط بين تلك القبائل^(١٦)، لكن الانتماء بعد إسلام حسان صار للأمة الإسلامية وللدين الإسلامي الذي يجمع الأمة على كلمة واحدة، وإن بقي للقبيلة شأن فهو بفضل مكانة الرسول (ص) فيها، أو تمسك أبنائها بالإسلام، من ذلك يقول: (من الطويل)

فما زال في الإسلام من آل هاشم دعائهم عز لا ترام ومفخر
هم جبل الإسلام والناس حوله رضام إلى طود يزوق ويقهر

٥. د. فاروق أحمد اسليم، الانتماء في الشعر الجاهلي، ص ٩.

١٦. المرجع نفسه، ص ٢٩-٣٠.

بهم تكشف الأواء في كل مآزق
عماس إذا ما ضاق بالقوم مصدر
هم أولياء الله أنزل حكمه
عليهم وفيهم ذا الكتاب المطهر^(٣٧)
واضح أن شأن بني هاشم بين القبائل الأخرى ما هو إلا كون الرسول(ص) منهم، لكن الانتماء الأوسع والأوثق فهو للأمة الإسلامية، فهو يقول: (من الكامل)

اللّه أكرمنا بنصر نبيه
وبنا أكرمنا بالضرب والإقدام^(٣٨)
وهذا تجسيد لما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة من تأكيد على عدم تفضيل أحد على أحد بناء على نسبه أو شرف قبيلته، إنما الأكرم هو الأتقى والكثير تمسكاً بالدين، بذلك نبذ الإسلام التفكير القبلي الضيق في ذهن حسّان وأحلّ محلّه الفكر الأوسع المتمثل في الأمة الإسلامية.

ثانياً: المضامين الفكرية وتطوير اللغة الشعرية

اللغة الشعرية شكل من الأشكال المتعددة للغة واستعمال خاص لها، كونها تخرق القواعد السائدة لها وتنحرف عن اللغة العادية لغرض الإثارة والإحساس بالجمال، واللغة الشعرية شأنها شأن الأشكال الأخرى للغة، فهي تحيلها على الأشياء ولا تملك خارج موسيقيتها الخاصة إلا ما تعبرها هذه الأشياء، والأشياء ليست شعرية إلا بالقوة ولا تصبح شعرية بالفعل إلا بفضل اللغة، فبمجرد ما يتحوّل الواقع إلى الكلام يضع مصيره الجمالي بين يدي اللغة، فالكلمات ليست إلا بدائل للأشياء، إنها مرصودة لتنقل إلينا خبراً عن الأشياء، فمادامت القصيدة لغة وكلمات فهي تحيل على المحتوى والمضمون الذي يعتبر مادة، أي شيء موجود في ذاته مستقل عن اللغة^(٣٩)، وكنتيجة منطقيّة تكون اللغة الشعرية انعكاساً مادياً في البنية السطحية للمعاني والمضامين التي تتبلور في ذهن الشاعر، وتوجد بالقوة في البنية الدلالية العميقة.

ويجب أن نُميّز بين مستويين للمضامين الشعرية هما؛ شكل المعنى ومادته، فالشكل ((هو العلاقة التي تجمع الكلمات في العبارات والنصوص، والمادة هي الكلمات نفسها))^(٤٠)، والمستويان كلاهما يعدان من البنية الفوقية للغة متأثران بما تفرض عليهما الدلالة الشعرية، لأن طريقة تأليف الكلمات وربطها وتنظيمها تغير المعنى^(٤١)، لذلك يجب أن يكون الشاعر دقيقاً في اختياره للألفاظ وطريقة رصفها في العبارات والنصوص. من هذا لا يمكن لشاعر أن يعبر عن المضامين الفكرية إلا بالألفاظ تناسبها وتدل عليها دلالة دقيقة، وبأسلوب مناسب لها في تنظيم تلك الألفاظ، لأن ترتيب الألفاظ في النطق والكتابة يكون على حسب ترتيب المعاني في النفس^(٤٢).

17. الأنصاري، ديوان حسان بن ثابت، المصدر السابق، ص 166.

18. المصدر نفسه، ص 377-378.

19. جان كوهن، بنية اللغة الشعرية، ترجمة محمد الولي ومحمد العمري، ص 36، 37.

20. المرجع نفسه، ص 43.

21. الدكتور مصطفى ناصف، نظرية المعنى في النقد العربي، المرجع السابق، ص 14.

22. المرجع نفسه، ص 41.

فإذا كانت المعاني في نفس حسان محصورة في الجاهلية على مضامين معينة نابعة من الحياة الجاهلية وثقافتها، فإنها في الإسلام توسعت آفاقها وتنوعت مدرجاتها - كما رأينا، ودخلت مضامين جديدة في ذهنه تطلبت منه لغة شعرية تناسبها وأسلوباً في التعبير أكثر دقة، ويمكن رصد انعكاسات المضامين الفكرية الأنفة الذكر على اللغة الشعرية عنده في المظاهر الآتية:

١ - المعجم الشعري؛

ينظر إلى المعجم الشعري عادة من زاويتين هما؛ الرأوية التركيبية والرأوية الدلالية، فالتركيبية ترى في المعجم مكوناً أساسياً لتأسيس بنية الجملة نحويًا، أما الدلالية فتري أن كلمات تردّد بنسب مختلفة بنفسها أو بمرادفها أو بتركيب يؤدي معناها وتكون حقولاً دلالية، وقد يكون المعجم وسيلة للتمييز بين أنواع الخطاب أو أساليب الشعراء أو العصور الأدبية^(٢٣)، وليس ((هناك معجم شعري وحيث في كل زمان ومكان ضمن لغة ما، وإتمامها معجم شعري متطور محكوم بشروط ذاتية وموضوعية... فالشاعر الواحد نفسه يكون له معاجم بحسب المقال والمقام))^(٢٤).

ومن بين الشروط الموضوعية المتكئة بتطوير المعجم الشعري عند حسان دخوله في الإسلام وتركه الجاهلية، بذلك اكتسب معجماً ضمّ كمّاً هائلاً من الألفاظ الجديدة بناتها ودلالاتها، فقد أشار الباحثون كثيراً إلى موضوع الألفاظ الجديدة وتغير صور التعبير لتناسب العصر والبيئة، وضرّبوا أمثلة على هذا التطور ومظاهره، مثل دخول المصطلحات العقيدية والفقهية والشرعية إلى الشعر وتغيير دلالات بعض الألفاظ واستحداث أخرى^(٢٥)، ولاشك في أن استجابة حسان للمضامين الجديدة بتوسيع آفاق معجمه الشعري كانت حذافة منه، والأمثلة كثيرة في شعره على استعمال تلك الألفاظ الإسلامية الجديدة نكتفي بقوله (من الكامل):

يا ويح أنصار النبي ورهطه	بعد الغيب في سواء الملحد
ضاق بالأنصار البلاد فأصبحت	سوداً وجوههم كلون الإثم
ولقد ولدناه وفينا قبره	وفضول نعمته بنا لم يجحد
والله أكرمنا به وهدى به	أنصاره في كل ساعة مشهد
صلى الإله ومن يخف بعرضه	والطيبون على المبارك أحمد ^(٢٦)

هذا على سبيل المثال لا الحصر، فقد كثر في شعره مثل هذا التأثر بالألفاظ الإسلامية الجديدة في معجمه الشعري من حيث الكم^(٢٧).

^{٢٣}. د. محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، ص ٥٧-٥٨.

^{٢٤}. المرجع نفسه، ص ٦١.

^{٢٥}. د. عبدالقادر أبو شريفة وآخرون، علم الدلالة والمعجم العربي، ص ٧٨.

^{٢٦}. الأنصاري، ديوان حسان بن ثابت، المصدر السابق، ص ١٠١-١٠٢.

^{٢٧}. ومما ورد في شعره من ألفاظ إسلامية قوله:

والله ربي لا نفارق أمره ما كان عيش يرتجى لعاد
لا نبتغي ربا سواه ناصرنا حتى نوافي ضحوة الميعاد
وقوله :

هداهم به بعد الضلالة ربهم وأرشدهم، من يتبع الحق يرشد

وعلى مستوى الحُفُولِ الدلاليَّةِ التي أشرنا إليها فيما سبق من القول يمكن أن نبحث في القصيدة المذكورة عن عدة حُفُولٍ تحتوي على كلمات تجمعها خيطٌ دلاليٌّ، ويتقوى بعضها ببعض بينما تنتمي إلى الحقلِ الدلاليِّ نفسها، مثلاً يمكننا إيجاد عدة ألفاظٍ في القصيدة تادلُ على أن الرسول(ص) (رحمةٌ للعالمين، منها (المهدي، خيرٌ من وطية الحصى، المهدي، طيباً، كريمٌ المحتد، المبارك، سعد الأسعد، أضاء، الثور المبارك، فضول نعمته، هدى به، المبارك أحمد).

فقد ترددت كلمات في هذه القصيدة بنسبٍ مختلفةٍ بنفسها أو بمرادفها أو بتركيب يؤدي معناها، إذ كوّنت حقلاً دلاليّاً تخوم معناه على كون الرسول(ص) رحمةً للعالمين وهادياً للبشرية، فلولاً تأثير المضمين الفكرية لما وجدنا اجتماع هذا الكم من الكلمات والتعابير الدالة على معنى معين، والأمثلة على هذا كثيرة مما يثبت تطور المعجم الشعري بفضل المضمين الإسلامية.

٢ - الأثر الأسلوبي

يظهر الأثر الأسلوبي للنص الشعري -بحسب كوهين- في ابتكار الصيغ الجديدة غير المستعملة من قبل، ومعنى الابتكار هنا أن يلجأ الشاعر إلى خلق مادة جديدة للمحتوى^(٢٨)، لأن العلاقة التي تجمع الكلمات في المتواليات اللغوية لا تتغير، فإذا اغترف الفن الشعري من أعماق الأشكال المستعملة والكلشيات الجاهزة بالمادة نفسها، فإنه يختار من الوقائع الأسلوبية ويقتصر على الانتقاء من بين الأشكال التي توفرها اللغة^(٢٩)، آنذاك يختفي الأثر الأسلوبي ويختفي معه الاتزياح وجماليات اللغة الشعرية.

أما محاولة إيجاد أشكال جديدة من خلال مادة جديدة للمحتوى فهي تعد خلقاً وتجسيدا للمعنى وإن كانت العلاقة قديمة، مثلاً لو أخذنا علاقة التشبيه بين طرفيهما لا تتغير، إذ لا بد من وجود مشبه ومشبه به ووجه شبه بينهما، لكن ما يتغير هو الكلمات التي توضع في هذه العلاقة لتخرج الصورة النهائية للتشبيه، وهذا ينطبق على باقي العلاقات الأخرى من الاستعارة والمجاز والإسناد وغيرها.

ومن ذلك قوله (من الطويل):

وما فقد الماضون مثل محمد
ولا مثله حتى القيامة يفتقد^(٣٠)

فقد عبر بكلمات جديدة لم تكن مألوفة في شعر حسان وهي نابعة عن المضمين الفكرية التي دخلت شعرة بعد إسلامه، لكن العلاقة هي علاقة تشبيه تجمع تلك الكلمات، وهي قديمة متداولة في اللغة العربية، فالأثر الأسلوبي يظهر في المادة الجديدة للمحتوى، وهي الكلمات الدالة على مضمون التشبيه، وقد أعطى بذلك صفة التميز بلا منازع للرسول(ص)، وجعله الشخص الوحيد الذي خسرت الإنسانية بفقدانه ليس في زمانه فحسب، بل حتى قيام الساعة لا يخرج شخص للبشرية يتمتع بأهميته، وليس هذا فحسب بل حضر التاريخ القديم والحديث عليه.

وهل يستوي ضلل قوم تسفهوا عمى، وهداة يهتدون بمهتد
ينظر: ديوانه، ص ٨٥-٨٦، و ص ٩١.

^{٢٨}. جان كوهن، بنية اللغة الشعرية، المرجع السابق، ص ٤٤.

^{٢٩}. المرجع نفسه، ص ٤٥.

^{٣٠}. الأنصاري، ديوان حسان بن ثابت، المصدر السابق، ص ٩٨.

مثال آخر على الأثر الأسلوبي الناتج عن اللغة الشعرية المتأثرة بالمضامين الفكرية عند حسان، قوله (من

الطويل):

لك الخلق والتعماء والأمر كله فأياك نستهدي وإياك نعبد^(٣١)

في الشطر الثاني جسّد حسان محتوىً جديداً في علاقة قديمة، والعلاقة هي الإسناد القائم بين الفعل والمفعول به المقدم عليه، وهذا وارد في اللغة وفي كلام الشعراء الآخرين، لكن إبداع حسان يكمن في الكلمات التي وضعها في تلك العلاقة، وهي المقتبسة من القرآن الكريم ومتعلقة بالمضامين العقيدية، فكان معروفاً عند العرب في الجاهلية طلب العون من الأصنام وعبادتهم إياها، لكن هذا تحوّل عند حسان إلى حصر العبادة على الله سبحانه والاستعانة به فحسب، إذ، الأثر الأسلوبي الذي يجذب انتباه المتلقي ناتج عن إقامة المفعولية مع فعل العبادة والاستعانة وحصرهما على الله سبحانه وتعالى دون غيره.

٣ - التناص

التناص مظهر آخر من مظاهر انعكاس المضامين الفكرية على شعر حسان، ذلك من خلال تأسيس علاقة استحضار لتصوص القرآن الذي صار مصدر الإلهام الشعري والجمالية اللغوية للشعراء، فقد صار القرآن المثل الأعلى للشعراء جميعهم في أسلوبه وطريقة تعبيره وإثراء اللغة بالكلمات والدلالات الجديدة، وبما أن القرآن مصدر المضامين الفكرية الجديدة فقد أثر في شعر حسان بدلالاته ولغته، وصار التعالق التصي سمة بارزة بينه وبين شعره، وأكثر أنواع التناص استعمالاً في شعر حسان الاقتباس المباشر والإحالة الدلالية.

فالاقتباس أكثر الأشكال وضوحاً فهو قرضٌ معلنٌ وحرفيٌ وخضورٌ فعليٌ لِنَصِّ في نص آخر^(٣٢)، وصار الاقتباس طريقة الشعراء التي بعد نزول القرآن، وتكمن أهميته الشكلية فضلاً عن بعده الدلالي في إثراء المعجم الشعري، وترك الأثر الأسلوبي في النص، علاوة على خلق التعالق التصي بطريقة الاستدعاء الشكلي، والأمثلة كثيرة على هذا في شعر حسان منها قوله (من الوافر):

وجبريل أمين الله فينا وزوخ القدس ليس له كفاء^(٣٣)
وقوله (من الطويل):

وأنت إله الحق ربّي وخالقي بذلك ما عمّرت في الناس أشهد
تعاليت ربّ الناس عن قول من دعا سواك إلهاً أنت أعلى وأمجّد
لك الخلق والتعماء والأمر كله فأياك نستهدي وإياك نعبد
لأنّ ثواب الله كلّ موحّد جنان من الفردوس فيها يخلّد^(٣٤)

^{٣١}. المصدر نفسه، ص ٨٣.

^{٣٢}. مجموعة مؤلفين، آفاق التناسية المفهوم والمنظور، ترجمة وتقديم: محمد خير البقاعي، ص ١٣٢-١٣٣.

^{٣٣}. الأنصاري، ديوان حسان ثابت، المصدر السابق، ص ١٦.

^{٣٤}. الأنصاري، ديوان حسان ثابت، المصدر السابق، ص ١٥٤.

حضور الآيات واضح في هذه الأبيات بأسلوبها وألفاظها وتأثيراتها الشكلية فضلاً عن التعالق الدلالي، فلو لا القرآن لما خرجت اللغة الشعرية عند الشاعر بهذا الشكل، ويبدو ذلك جلياً عند مقارنته بقصائده الجاهلية. ولا يقف التناصُّ مع القرآن عند حدِّ الاقتباس المباشر، بل صار أسلوب الشاعر كله متأثراً به، يستوحى منه تعابيره ويقيس لغته الشعرية عليه، ويمكن التأشير إلى مواطن عديدة في شعر حسان تدلُّ على إقامة علاقة غير مباشرة مع آيات القرآن الكريم، تكفي بالإشارة هنا إلى قوله (من الوافر):

إذن والله نرميهم بحرب تشيب الطفل من قبل المشيب^(٣٥)

في هذا تأثر واضح بأسلوب القرآن الكريم في التعبير، وتناصُّ غير مباشر مع الصياغة القرآنية للتعبير عن أهوال القيامة التي تجعل ولدان شيباً، فيأتي الشاعر يستحضر هذه الصياغة في شعره ليقوم يقعون في حرب مع المسلمين.

وأخيراً ليس ما ذكر هنا إلا إشارات عابرة تجسّد جدلية العلاقة بين اللغة والفكر، حيث يؤثر أحدهما في الآخر، فلا يمكن تطوير اللغة الشعرية كقوالب خالية من الأفكار الرصينة، ولا يمكن لفكر عميق أن يتجسّد في لغة زكية محصورة في تعابير ساذجة غير دقيقة، وقد تحقّق التكامل بين الجانبين بالفعل في شعر حسان بعد تحوُّله من الجاهلية إلى الإسلام.

خاتمة

في ختام هذا البحث يمكن تلخيص الاستنتاجات في النقاط الآتية:

١. تأثرت اللغة الشعرية عند حسان بن ثابت بالضمائم الفكرية التي دخلت شعره بفضل إسلامه، فتطوّرت جوانب عديدة من تلك اللغة مثل الاتساع في المعجم الشعري، وتكوّن حقول دلالية عديدة في قصائده ترتبط بالمجالات الفكرية التي صارت مضامين شعرية لديه.
٢. تغيّر الأثر الأسلوبي المتروك في جملة وتعابيره وصوره الشعرية بعد توسيع القاعدة الدلالية بالضمائم العقيدية والفكر الاجتماعي والفكر السياسي، فقد صارت مادة المحتوى جديدة عند تجسيدها في العلاقات التي تربط الكلمات بعضها ببعض في المتواليات اللغوية، وهي علاقات ثابتة في اللغة وقديمة في الاستعمال، لكنّها جديدة بكلماتها ومضامينها الجديدة.
٣. صار التناصُّ في شعره مع القرآن الكريم كثيراً، خصوصاً في الموضوعات المتعلقة بالضمائم الفكرية التي اكتسبها بعد إسلامه، فصارت بها اللغة الشعرية أكثر جمالاً وشعرية بفضل اتخاذ أسلوب القرآن أنموذجاً يحتذى في التعبير الجمالي.
٤. تبين أن العلاقة الجدلية بين فكره ولغته الشعرية صارت وطيدة وأكثر إلحاحاً، لأنّ التحول الفكري الذي حدث عند حسان أصبح بحاجة إلى لغة أكثر تطوراً وأسلوب أدق في التعبير، لأنّ المفاهيم الجاهلية لم تعد تكون فكرة وحلت محلها مفاهيم جديدة إسلامية، فحملت هذا الحال على اتخاذ تقنيات لغوية جديدة للتعبير على الحالة الجديدة.

^{٣٥}. المصدر نفسه، ص ٤٢.

٥ - ظهرت أهمية البنية الدلالية العميقة التي رسمت الملامح الشكلية لخطابه الشعري، وأعانته على اختيار ألفاظه وتعابيره لتكون أكثر دقة، لأنّ المضمون يأخذ شكل القالب ويتحدّد بحدوده، كما أنّ الشكل يأخذ صورته بناءً على معطيات المضامين ومتطلباتها الدلالية .

فائمة المصادر والمراجع

- أبو شريفة، د.عبدالقادر وآخرون، علم الدلالة والمعجم العربي، دار الفكر، عمان، ط١، ١٩٨٩.
- اسليم، د.فاروق أحمد، الانتماء في الشعر الجاهلي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط١، ١٩٩٨م.
- الأنصاري، حسان بن ثابت (٥٤هـ)، شرح الديوان، تحقيق: عبدالله سنده، دار المعرفة، بيروت، ط١، ٢٠٠٦.
- الأنصاري، حسان بن ثابت (٥٤هـ)، ديوان حسان بن ثابت، شرح: د.يوسف عيد، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- ضيف، د.شوقي (١٣ مارس ٢٠٠٥)، تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٦٣م.
- كوهن، جان (١٩٩٤م)، بنية اللغة الشعرية، ترجمة محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٨٦.
- مجموعة مؤلفين، آفاق التناصية المفهوم والمنظور، ترجمة وتقديم: محمد خير البقاعي، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ط١، ١٩٩٨.
- مجموعة مؤلفين، القيم في الظاهرة الاجتماعية، تحرير: أ.د.نادية محمود مصطفى وآخرون، دار البشير، القاهرة، ط١، ٢٠١١.
- مفتاح، د.محمد، تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٣، يوليو ١٩٩٢.
- ملكاوي، د.فتحي حسن ، البناء الفكري مفهومه ومستوياته وخرائطه، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هرندن، فيرجينيا، ط١، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.
- ناصف، الدكتور مصطفى، نظرية المعنى في النقد العربي، دار الأندلس، بيروت - لبنان، ط١، د.ت.

Abstract

The intellectual implications of Hassan ibn Thabit's poetry and its impact on the development of the poetic language.

This research addresses an important issue ,Related to the dialectical relationship between language and thought, Where language is a receptacle of thought determined by its boundaries, On the other hand, thought enriches the language and provides it with many words, expressions and meanings ,The more language is influenced by thought, the more content it becomes, These intellectual implications affect the superficial construction of language ,It is reflected in the composition of the sentences and the formulation of the method .

Hassan bin Thabit's poetry is a reflection of this phenomenon, After his poetry was influenced by Islam intellectual content has increased in his poems, And developed his poetic language at the level of lexicon and methodological effect and Harmony.

پوخته

ناوهرۆکه هزریهکان له شیعری حهسانی کوری سابیت و کاریگه‌رییان له‌سه‌ر گه‌شه‌پیدانی زمانی شیعرنوو سین.

ئهم توێژینه‌وهیه له‌و په‌یوه‌ندییه دیالیکتیکیه ده‌کۆلیتیه‌وه که زمان به هزره‌وه ده‌به‌ستیتیه‌وه، به‌شپۆه‌یه‌ک که هه‌رکه‌یان کار له‌ویتر ده‌کات، زمان ده‌بیته که‌ره‌سته‌ی ده‌رب‌پینی هزر و به‌بێ بوونی زمانیکی پاراو و ره‌وان قسه‌که‌ر ناتوانیت له‌ بیر و هزری بدویت، هه‌روه‌ها هزریکی پیشکه‌وتووش ده‌بیته هۆی گه‌شه‌سه‌ندنی زمان له هه‌موو رووه‌کانه‌وه.

ئهم دیارده‌یه له‌ شیعری حهسانی کوری سابیتدا به‌روونی دیاره کاتیکی مسوولمان بوو کۆمه‌لیک ناوهرۆکی فیکری نۆی هاتنه‌ ناو بابه‌ته شیعریه‌کانیه‌وه، وه‌کو بابه‌تی بیروباوه‌ر و هزری کۆمه‌لایه‌تی و هزری سیاسی، ئه‌مه‌ش وایکرد حه‌سان به‌ دوا‌ی زمانیکی شیعری بال‌تردا بگه‌رپیت بۆ ده‌رب‌پینی ئهم ناوهرۆکه نویانه، تا بتوانیت به‌ باشترین شپۆه گوزارشتیان لی بکات، ئه‌مه‌ش وایکر له‌ رووی فه‌ره‌نگی شیعری و کاریگه‌ری شپۆاز و ده‌فتاویزاندایه‌ره به‌زمانی ئیعه‌ریه‌که‌ی بدات.